

تاريخ الاستلام: 2025/01/26 تاريخ القبول: 2025/04/26 تاريخ النشر: 2025/07/30

هشام لعور *

جامعة 20 أوت 1955 - سكيكدة (الجزائر)

Email: h.laouar@univ-skikda.dz

الملخص :

شهد العصر الأموي انتقال العرب من مرحلة البداوة إلى مرحلة الدولة والحضارة. وقد اتسعت رقعة الدولة لثقلها بسبب الفتوحات الإسلامية، وأصبح للدولة مؤسسات تنظم شؤون الحكم والناس؛ كالشرطة والجيش والجباية وغيرها. ولكن بعضا من أبناء القبائل لم يألفوا النظام الجديد، فتمردوا عليه وعلى قوانين الدولة الجديدة، لأسباب عديدة ومختلفة. فتحولوا إلى ما يشبه الصعاليك، وقطاع الطرق، وباتوا مطاردين من مؤسساتها، بل ومن قبائلهم أيضا في بعض الأحيان، بسبب جرائم ارتكبوها، أو تورطوا فيها. ويعد الشاعر القتال الكلابي مثالا عن هذه الفئة، وكان شعره في أحيان كثيرة مرآة عاكسة لشخصيته وللصراع الذي عرفته تلك الفترة.

الكلمات المفتاحية: التُّمُود ، الفُتْكَ ، شعر ، القَتَال الكِلَابِي

Abstract:

The Umayyad era witnessed the transition of the Arabs from the stage of nomadism to the stage of state and civilization. The scope of the Umayyad state expanded due to the Islamic conquests, and the state had institutions that organized the affairs of government and people. Such as the police, army, tax collectors, etc. But some of the tribesmen were not accustomed to the new system, so they rebelled against it and the laws of the new state, for many different reasons, and they turned into what resembled tramps and bandits, and they became pursued by its institutions, and sometimes even by their tribes, because of crimes they committed, or were involved in. . The poet Al-Qatal Al-Kilabi is an example of this category, and his poetry was often a reflective mirror of his personality and the conflict that was known during that period.

Keywords: rebellion - lethality - poetry - Al-Qatal Al-Kilabi.

مقدمة :

يعتبر المؤرخون العصر الأموي عصر انتقال بين مرحلة البداوة ومرحلة الحضارة والمدنية في تاريخ العرب. وقد شهد المجتمع العربي في تلك الفترة تغيرات كبيرة بفعل حركة الفتوحات وانتشار الإسلام شرقا وغربا. وتأثر العرب بمظاهر الحكم والعيش في الأمصار التي دخلوها. ورويدا رويدا بدأت تتشكل معالم الدولة، وتبرز مؤسساتها، وتمارس سلطتها على الرعية. ولكن هذا الأمر لم يكن سهلا كما دلت عليه كتب التاريخ والأخبار؛ فالعرب كما يقول ابن خلدون: "أصعب الأمم انقيادا بعضهم لبعض؛ للغلظة والأنفة، وبعد الهمة والمنافسة في الرئاسة، فقلما تجتمع أهواؤهم (وبن محمد بن خلدون، 2004 ص 289).

ولذلك ظهرت فيهم العصبية القبلية. وهي وإن كانت من بقايا الفترة الجاهلية وشعاراتها، فإنهم لم يستطيعوا التخلص منها ونسيانها بشكل كلي. بل كانت تظهر في كل مرة تستثار حميتهم، فكأن العربي رغم تعاليم الإسلام التي نبذت العصبية وحذرت منها، فإنه كان يحتفي بالعصبية ويلوذ بها، كلما أحس بخطر يكتنفه، أو يهدد مصالحه ووجوده.

كما كان للخلافات السياسية التي شهدتها الخلافة الأموية التي تعرضت لتهديد كبير بفعل الانقسامات والفتن والصراعات، ومقتل الإمام الحسين (ع) في موقعة كربلاء، أثر بارز في توسيع الفرقة، وإذكاء النعرات القبلية والطائفية. وفي خضم هذه المتغيرات المتسارعة، كانت تبرز بعض الفئات التي تتمسك بالتقاليد العربية وتتعصب لها، وتتحدى التغيرات الجديدة التي تعصف بميراث الأجداد وتقاليدهم، خاصة مع ازدهار الحياة في ذلك العصر، ولا سيما في منطقة الحجاز، التي باتت تجذب إليها كثير من الخيرات المحصلة بفعل حركة الفتوحات، وتوسع التجارة الذي عرف ازدهارا لافتا. فشاع اللهو، وازدهر الغناء والموسيقى، واستقدمت الجواري من البقاع البعيدة، وظهرت ظاهرة زواج العرب بالجواري من بنات الموالي، وهو الأمر

الذي رفضه بعض أبناء البوادي من الأعراب، الذين نادوا بضرورة الحفاظ على نقاء العرق والدم، وحذروا من ضياع النسب العربي الصميم بفعل تلك الزيجات، ولم يتوانوا عن التنديد بهذا التوجه في أشعارهم، كنوع من النقد الاجتماعي لهذه الظاهرة. وبناء على كل ما تقدم ظهرت بعض الشخصيات المتمردة على نظام الدولة الناشئة، ومظاهر العيش الجديد الذي رأوا فيه- كما أشرنا- تهديدا لكيوناتهم وتقاليدهم.

ولعل مما يؤكد هذا الكلام كثرة الفرق والصراعات التي ظهرت في العالم الإسلامي، بالإضافة إلى بعض الشخصيات المعروفة التي كانت خارجة عن سلطان الدولة، وملاحقة من أعوانها. ومن هؤلاء " القتال الكلابي " الذي عاش في العصر الأموي. فمن هو هذا الشاعر المتمرد؟ وما هي الأسباب التي دفعته لذلك، ليصبح ثائرا متمردا، وفاتكا من هفك العرب في ذلك العصر، وملاحقا- كما سبقت الإشارة-؟ وكيف نقل لنا تجربته في أشعاره؟ وهل استطاع أن يعبر من خلال أشعاره عن روح ذلك العصر والتحديات التي واجهت الإنسان العربي في تلك الحقبة التاريخية؟ وهل يمكن اعتبار شعره امتدادا لحركة الصعاليك التي عرفت في العصر الجاهلي، وعادت الظهور في العصر الأموي؟

1- التعريف بالشاعر:

ورد ذكر القتال الكلابي في بعض كتب المتقدمين والمتأخرين. فأما المتقدمون فمنهم " أبو سعيد السكري " (ت 275هـ) في كتابه أخبار اللصوص، وهو كتاب ضائع كما يخبر بذلك المؤرخون والإخباريون، ولكن بعض القصص التي وردت فيه تم تداولها في كثير من الكتب التي تلت بعده. كما أشار إليه " المرزوقي " (ت 421هـ) في شرح ديوان الحماسة "لأبي تمام"، ولا شك أن اهتمام أبي تمام بشعر

القتال الكلابي دليل على تقديره لهذا الشاعر، ولمستوى شعره العالي، الذي أهله لأن يكون ضمن مختارات أبي تمام في حماسته.

أما عند المتأخرين فنجد ذكره عند عمرو فروخ في كتابه تاريخ الأدب العربي، حيث يقول: " هو أبو المصيب، أو أبو شليل عبادة أو عبيد بن مجيب بن أبي شليل المضرخي بن عامر بن الهصان بن كعب من بني كلاب بن عامر... وقرب أبو المصيب بالقتال لتمرده على السلطان (الدولة) ، ولفكه بالناس، فقد كان لصا فتاكا كثير الجرائم (ع.فروخ 1981ص 433). هذه هي شخصية القتال الكلابي، كما يذكرها الدكتور عمرو فروخ، وهكذا تواترت أخبارها وصفاتها في كتب الأدب القديم وتاريخه، فشخصيته أشبه ما تكون بشخصية الشعراء الصعاليك، الذين كانوا يقطعون السبيل، ويحترفون الغارة على الآخرين للتكسب والعيش، ولا ينزلون عند سلطان قبيلة أو ملك.

ولكن شخصية القتال تتميز بسمّة أخرى لعلها لا تتوفر إلى في فئة قليلة جدا من الشعراء الصعاليك، وهي عدم التورع في البطش والفتك بالآخر، وهو ما جعله هاربا ومطاردا ولاجئا في الجبال والمغارات، يألف البلع والوحوش، ويحذر الرصد والطلب.

2- عوامل التمرد والانحراف:

لا يولد المرء مجرما أو منحرفا بفطرته. ولكن الظروف التي يعيشها، والتحديات التي قد يواجهها تجنح به أحيانا إلى التمرد والفتك والجريمة، خاصة في البيئة التي عاش فيها " القتال الكلابي". فهو شاعر بدوي، يتميز بنخوة أهل البادية وحميتهم، فإذا اجتمع إلى هذا عامل القوة والفروسية، تجده لا ينزل على ضيم، ولا يبيت على دلى أبدا. وتذكر كتب الأخبار والسير أنه كان محبا لابنة عمه، وكان يلتقيها بين الفينة والأخرى، وتشاء الأقدار أن يراه ابن عمه " زياد" وهو أخو محبوبته التي تسمى " العالية"، فينهره وينهاه عن العودة للقاءها، ولكن داعي الشوق والحب كان أقوى من

أن يمثّل ويخضع لذلك النهي وتلك التهديدات، فيعاود اللقاء بها، ويدركه ابن عمه الذي كان قد نهاه وحذره، فيفرض القتال، ويلحقه ابن عمه مشرعا سيفه، ولكن المقتال يسأله بالدم والقربة أن يتركه وشأنه، ولكن ابن العم الغاضب لا يصغي ولا يريد أن يقبل اعتذارا، فلا يجد العاشق الهارب عينا من الدفاع عن نفسه، فيرمي ابن عمه برمح، يكون فيه مصرعه. فلا يجد بعد هذه الجريمة التي اقترفها مضطرا إلا الهروب والتواري. يقول إحسان عباس واصفا شخصية المقتال، وهو محقق ديوانه، الذي بدل جهدا جبارا في جمع أشعاره المبتوثة في ثنايا كتب الأدب وتاريخه في ديوان واحد، جمع فيه ما تفرق من أشعاره: " وكان القتال كثير الجنايات سريعا إلى السيف، ولذلك تخلت قبيلته عن حمايته، وهذا جعله في أغلب الأحيان ثائرا على تلك القبيلة... يعيش في جاهلية مستمرة، ولا يكاد يؤمن بشيء سوى العصبية، وتضيق به دائرتها أحيانا إلى حد التعصب لبعض القبيلة على بعضها الآخر... وهو حسبما وصف نفسه ذو نفس شريسة، يحتقر قبول العقل أو الدية في العلاقات العدائية، لا يرى شيئا دون الثأر، ويسكت على الترات حتى تمكنه الفرصة. أهانه مرة جرير بن الحصين بضربة سوط على أنفه، فحاولوا ترضيته فلم يقبل، وبقي ينتظر ثأره، حتى احتلم ولده، فطلب بهم ثأره، فهو مريد العدا، حاد ماض صلب في الحق والباطل على السواء لجوج عنيد، إذا صمم أنفذ، وركب أمورا يتعيفها ذو الإحساس الطبيعي السليم (ق. الكلابي (1989)، ص 17-18).

هذه هي إذن ملامح شخصية الشاعر - المقتال الكلابي- كما يخبرنا بها محقق ديوانه، وفي وصفه المقتضب لشخصيته، نجد إشارات وتفاصيل عن صاحبها ونفسيته الحادة والثائرة والعنيدة. وهي ما تذكرنا بإطلاة الأعراب وعنائهم. فالمقتال يفترق إلى المرونة واللؤذ وطباع خشنة عنيفة، وانظر إلى قول المحقق " سريعا إلى السيف"، ففي هذه العبارة ما يدل على شخصيته العنيفة والشديدة، التي لا تحتكم

إلى حوار أو منطق، بل تجد في القوة وحده السيف أمانا من الضيم وأذى الآخرين، فكانه بهذا يريد أن يحيا مخوف الجنب، منيع الحمى. ومع أننا لم نأت على كل أخباره التي أثرت في تكوين شخصيته المتمردة والفتاكة، فقد اختلفت الروايات كثيرا في الأخبار المتعلقة به، فزعم قوم أنه شاعر مخضرم، ولأصحاب هذا الزعم حجج قوية. ولكن ما يهمننا في الشاعر هو شخصيته البدوية المتمردة الذي استعصت على النظام والدولة، بل ومظاهر الحضارة التي أخذت تسري في المجتمع العربي آنذاك. وإن كان لنا أن نتوقف مع سمة بارزة في شخصه، فهي إيمانه بالعصبية القبلية، وهي سمة العصر الذي عاش فيه على كل حال، وهو العصر الأموي. حيث اشتدت هذه النزعة، حتى ذكرت الناس بالعصبية الجاهلية.

وليس ثمة شك أن العربي كان يحتفي بقبيلته عندما تشتد به الخطوب، فيطلبه علو، أو تستبد به فاقة أو جوع. ولكن جرائم القتال أفقدته هذا الحصن والحصن الذي يحتفي به الناس عادة في ذلك الزمان. فنبذته القبيلة وتخلت عنه، ورفعت عنه حمايتها، فغدا منبوذا مطاردا، خاصة عندما كثرت جرائمه، وتعددت خصوماته، فلم يعد ثمة مجال للحماية والنصرة. وفي ظروف صعبة كهذه، نشأت في نفس الشاعر أحاسيس مضطربة، ولا شك أنها عمقت لديه الشعور بالاغتراب عن المجتمع الذي يعيش فيه، ومن ثم تحول ذلك الاغتراب إلى قطيعة مجتمعية، وشك نظرة عدائية، أدت فيما بعد إلى بروز نزعة التمرد والفتك عنده. وهي دون شك نزعة غاضبة وحاقدة في آن، رسمت ملامح شخصية الشاعر هذه حياته، بل مدى الأزمان كلها، فاختفى اسمه الحقيقي (عبادة أو عبيد بن مجيب بن أبي شليل المضرحي)

وأصبح معروفا بـ "القتال الكلابي"، وهو اللقب الذي لازمه طوال حياته، وبات معبرا عن شخصيته المتمردة الثائرة. وننبه في ختام حديثنا عن شخصيته إلى أن أصوله البدوية الأعرابية، كان لها دور قوي في أهم الأحداث التي عاشها وكان طرفا فيها، ولعل التفاوت الطبقي أحيانا قد أسهم في تشكيل نظرته الناقمة، ومن جهة أخرى

فإن قسوة بعض الجبابة الذين ترسلهم الدولة الأموية لجمع الزكاة والضرائب - وسوء معاملتهم للناس، كل هذا- ساهم إلى حد بعيد في تشكيل شخصيته العنيفة والعنيدة. ومع ذلك فقد كان شاعرا مجيدا، احتفت بشعره كتب القدامى، واحتفى به أبو تمام فجعله في حماسته، وفي هذا اعتراف بشاعريته ومكانته. ويصف عمرو فروخ شعره فيقول: " كان للقتال ديوان شعر فيه قصائد طوال ومقطعات، ولكن الذي وصل إلينا من شعره قليل. وشعره -ببويهي الألفاظ، متين التراكيب، واضح المعاني، وفيه تعابير قرآنية. وهو يصور لنا في شعره المنازعات القبلية، وأوجه الفتك والثأر وحياة اللصوصية في الخروج على السلطان (الدولة). أما فنونه فوجدانية أبرزها الحماسة والغزل، وفي حماسته فخر بالنفس وبالقبيلة، وفي غزله نفحة هادئة أقرب إلى أن تكون عذرية. وله أيضا مديح قليل لا جودة فيه، ثم قليل من الحكمة وإشارات إلى الخمر وبعض الهجاء(ع.فروخ (1981)، ص ص 433-434). هذه هي ملامح شخصية " القتال الكلاسي" الشاعر، التي جمعت في ثناياها ما قل اجتماعه في غيره، وهو عصبية البدوي ونزقه، بالإضافة إلى رقة البدوي وشاعريته.

3- مظاهر التمرد والفتك في شعره:

كان القتال عنيدا كما أشرنا صعب المراس، عسير الصلح حال العداوة، وفي ذلك

يقول:

إني لعمر أبيهم لأطبالهم حتى يصالح راعي لثلة الذيب
أو تنجلي الخيل عن قلى مصوعة كأنها خشب بالقلاع مقطوب

تعكس هذه الصورة الشعرية شخصية صاحبها، فهو لا يلين عند الخصومة، ولا يرضى غير السيف حكما مع خصومه. وانظر إلى ما يتضمنه قوله في عجز البيت الأول (حتى يصالح راعي الثلة الذيب) من معاني الإصرار المطلق على الاستماتة في

العداوة، والصلابة التي لا يرجى من ورائها رحمة أو شفقة ولين. إن هذين البيتين يعكسان في جوهرهما طبيعة صاحبهما البدوية التي أكسبها شظف العيش في الصحراء، وقساوة العيش، ومخالطة السباع والوحوش غلظة وجفاء قل نظيرهما، إلا عند هذه الفئة من الأعراب وسكان البوادي. وقد سبقت الإشارة أن من أول من فتك بهم القتال الكلابي بعض قرابته، وهو ابن عمه، وفي هذه الحادثة يقول:

لمت زيادا والمقامة بيننا ونكوة لأرحام سعد وهيثم
ولما دعاني لم أجبه لأنني خشيت عليه وقعة من مصمم
فلما أعاد الصوت لم ألك عاجزا ولا وكلا في كل دهياء صيلم
فلما رأيت أنه غير مني لمت له كي بلدن مقوم
ولما رأيت أتي قد قتله لممت عليه أي ساعة منم.

(ق. الكلابي (1989)، ص 89)

فرغم أن القتال كان شديد البطش والفتك بأعدائه، إلا أنه كان يعز عليه أن يقتل ذوي رحمه، ولولا أنه اضطر لقتال ابن عمه زياد ما قتله. فهو يصور نفسه في صورة النادم الأسف المتحسر على قتله. كيف لا وهو المعروف بعصبيته لقبيلته، فكأن إصابة أو فقد أي واحد منها فيه إضعاف لشوكة القبيلة وقوتها، وهو المعروف باعتداده بمثل هذه الأمور. ونجده في معرض آخر من شعره يعود لهذه الواقعة التي أحزنته، وهي قتله ابن عمه زياد، وفي العودة لهذا الموضوع تأكيد على شدة ألمه والأثر الذي تركته في وجدانه، حتى كأنه يخبر القبيلة وأهل القتل أنه قد اضطرارا، ودفاعا عن النفس، ولو أمكنه تجنب هذا الأمر لفعل.

يقول القتال الكلابي:

نهيت زيادا والمهامه بيننا ونكوة بالله حول مجرما
فلما رأيت أنه غير مني ومولاي لا يزداد إلا تقدما

ملكت له ههني بأبيض صارم حسام إذا ما صادف العظم صمما
بكهري لم تخدم الههني أخي نجاة لم يكن متهمما
فانظر إلى قوله: "ذكرته الله". إن فيه إشارة قوية إلى تقديره للرحم والقرابة ومعرفة
حقوقها، فحين أقبل عليه ابن عمه مشهرا سيفه، هاله أن يرفع السيف في وجه
قريبه، فراح يذكره بالرحم التي حث الإسلام على رعايتها وصيانتها، ولكن ابن العم
صمت أذناه، وعميت بصيرته، فلم يعد يرى غير سفك الدم، والبطش بمن يشبب
بأخته ويسعى كل حين للقاء بها.
وتذكر كتب الأخبار أن القتال قد فر بعد جريمته، ثم رفع لموه للخليفة فأهدر
دمه، وصدت مكافأة لمن يدل على مكانه أو يقتله، فأثر حينها الاختباء في الجبال
والكهوف، يألف السباع والوحوش وتألفه، بل إنه كما يذكر في أشعاره بات يقاسمها
زاده مما يصطاده في تلك البيئة القاسية. وله في هذا قصة مشهورة عن مصادقته
لنهر التقى به حيث كان يعيش ويختبئ. وفي هذا يقول:

ولي صاحب في الغار هك صاحباً	هو الجون إلا أنه لا يعل
إذا ما التقى بنا كان جلي حديثنا	صمات وطرف كالمعابل أطحل
صماتكروى لنا بطعامنا	كلانا له منها نصيب ومأكل
فأغلبه في صنعة الزاد إنني	لميط الأذى عنه ولا يتأمل
وكانت لنا قت بأرض مضلة	شريعتنا لأيننا جاء على
كلانا عتو لو يرى في عتوه	محزواكي في العداوة مجمل

إن هذه الصورة قد تبدو مألوفة عند قراء الشعر العربي القديم، فهذه الأبيات
تذكرنا بلامية العرب للشنفرى، وهو الشاعر الصعلوك الذي اختار القفار مسكناً،

والوحش أنيسا وصاحباً. يصف القتال في الأبيات السابقة حاله مع هذا الضيف الذي يقاسمه مغارته التي يأوي إليها، إنه ضيف ليس مثل الضيوف الذين يعرفهم الناس، إنه المغير ذلك السبع الضاري، الذي تحول فجأة إلى شريك له في العيش يأكلان ما يصدها القتال من الطباء التي يصادفها، ويرتويان من نبع الماء نفسه، ويترك الواحد منهما المحل لصاحبه كي يرتوي، كلما أقبل أحدهما. ولكن القتال يدرك أنها صداقة تقوم على الحاجة والمصلحة. لذلك غدت علاقة يشوبها الحذر الشديد، مخافة أن يعدو أحدهما على شريكه فيبطش به فجأة، وانظر إلى قوله (كلانا عمو) فرغم اشتراكهما في الزاد والمسكن إلا أن علاقتهما بقيت هشّة، ويقال إن القتال قد قتله في آخر الأمر. وفي اعتقادي أن حاجة الشاعر لمن يؤنسّه في مغارته أشد من حاجة النمر لذلك، فالإنسان بطبعه يبغض الوحدة، ويطلب الأنس، ولو كان فاتكاً من طينة القتال.

ويبدو أن البيئة التي كان يعيش فيها الشاعر كانت بيئة خطيرة تألفها السباع والضواري، لذلك يطالعنا في شعره بقصة قتله للأسد، حيث يقول:

" أتتكم المنايا من بلاد بعيدة بمنذ خرق السبل على المناكب
أخي العرف والإنكار يعلوك وقعة بأبيض سقاط وراء الضرائب

وتشي هذه الصورة بالأخطار التي كانت تقترن في مخبئه من جهة، وبقوته الجسمانية وشجاعته وفتكه من جهة أخرى، فمنازلة الأسد تقتضي قوة الساعد، وحدة السيف، ورباطة الجأش وثبات العزم دون ريب.

1-3 السجن ثم الفرار منه:

ظلت الدولة الأموية تلاحق القتال الكلاسي، وترصد المكافآت لمن يدل عليه، أو يقبض عليه. وتشير الكتب التي تناولت حياته بالإضافة إلى أشعاره إلى أنه اعتقل

وعذب في سجنه، ولكن نزعة التمرد التي اتسمت بها شخصيته، جعلته يكسر القيد، ويقتل السجن الذي كان يشدد وثاقه وتعذيبه، ويفر من جديد ليتحول مرة أخرى إلى مطارِد وملاحق من قبل الدولة. وفي شعره وصف لمعاناته داخل السجن، وكيف اختار الفتك بالسجان على حين غفلة منه، ليستعيد حريته. يقول:

ولما رأيت الباب قد جيل دونه وخفت لحاقا من كتاب مؤجل
رددت على المكروه نفسا شريسة إنك لم تقدر للتذل
وكلّ باب الجن ليس بمنى وكان فراري منه ليس بمؤتلي
إذا قلت رفهني من الجن ساعة تدارك بها هي علي وأفضل
يشد وثاقي عابسا ويتلي إلى حفات في عمود مومل
أقول له والسيف يعصب رأسه أنا ابن أبي أسماء غير المتعل
عرفت نداي من نداه وجراي وريحه تشاني إذا اشتد مسجلي
تركت عتلق الطير تحلي حوله على عدواء كالحوار المجل

يصور لنا الشاعر في هذه الأبيات قصة هروبه من السجن، وهو الذي يأنف القيد ويعشق الانطلاق والحرية، ولقد ضاقت نفسه بالسجن، وضاق السجن بشخصيته المتمردة الثائرة، فراح يستعطف السجن لكي يخفف عنه شيئا من العذاب والكرب الذي كان فيه. ويبدو أن السجن كان يعلم من هو سجينه، فراح يشد الوثاق والقيد، لتشتد معه معاناة القتال وغضبه، فلما آنس غفلة من السجن انقض عليه فقتله، ثم انطلق هاربا"، وانظر إلى قوله: "رددت على المكروه نفسا شريسة"، وقوله "عرفت نداي من نداه وجراي"، إن وصف الشاعر لنفسه بالشراسة والجرأة، هي من قبيل الإصرار والافتخار وعدم الندم على الجرائم التي

يرتكبها، ولو كانت من قبيل القتل، وهو من أفضع الجرائم على الإطلاق، إن لم يكن أفضعها. ومع ذلك نجد الشاعر ثابت الجنان، لا يخالجه ندم فيما فعل. بل إن غضبه وحقده على السجان الذي كان يشد وثاقه إلى عمود من أعمدة السجن، قد فاقم بغضه له، وكراهيته إياه، فكان قتله له، تنفيسا عن نفس مظلومة معذبة - كما يرى هو - لا تقبل الضيم وترد الصاع بالصاع.

ويصل الخبر إلى الخليفة فيأمر بملاحقته ومطاردته، ويرصد المكافأة لمن يدل عليه أو يأتي برأسه. ليجد القتال ملاذا آمنا في بيت صديقه "حبيب بن جبار"، ولكن أئني للأمان أن يدوم وأيدي الخليفة تطلبه في كل مكان؟ فقد استطاع أحد المترصدين والمترصين أن يعرف مكانه، ويدل أعوان الخليفة عليه. فلما بلغوا المنزل المنشود الذي يختبئ فيه اهتدى وصديقه حبيب بن جبار إلى حيلة استطاع بها أن يخدع أعوان الخليفة، وينجو بحياته. وفي هذا يقول الشاعر:

ألا هل أتى فتیان قومي أني - تمصيت لما اشقت الحرير زينا
وأديت جلبابي على بنت لحقي - وأبيت للقوم البتلان الخضبا.

يصف الشاعر الحيلة التي اهتدى إليها مع مضيفه ليخدع أعوان الخليفة، فقد لبس الجلباب الذي تلبسه النسوة، وغطى وجهه، وخضب يديه بالحناء، وادعى أنه من بنات حبيب بن جبار وأن اسمه زينبا. ورغم ما في هذه الحيلة من الفكاكة والخفة، إلا أنها تعكس من جانب آخر دهاء القتال ومكره، الذي استطاع به أن يتغلب على ملاحقيه، ويضمن حريته لأيام أخرى.

ويتعجب الدكتور "حسين عطوان" من سمة اختص بها القتال الكلابي إذا ما قورن مع غيره من الفتاك والصعاليك، وهي تصوير جرائمه والفخر بها في أشعاره

حتى كأنه " يريد أن يذيعها بين الناس ليعرف بها، فليس من جريمة إلا وصورها في شعره، فحين قتل جارية عمه أعلن قتله لها:

أنا الذي ضربتها بالم ، نصلى عند القوين السائل المفضل
ضربا يكفي بطل لم ينك.

(ح.عطوان (د.ت.ط)، ص 180)

ففي هذه الأبيات إشارة إلى شدة الفتك التي تميز بها القتال الكلابي، فلم يسلم من بطشه العبيد والجواري، وللقصبة تنمة، فقد اتهمه عمه بأن جاريته التي قتلها كانت حاملا، وبأنه أزهق بقتلها روحين معا. فلم يتورع بعد هذا الاتهام من أن ينبش قبر الجارية أمام جماعة من الشهود أحضرهم ليشهدهم على كذب عمه، فأخرج جثة الجارية من القبر، وشق بطنها، بل وسجل هذه الحادثة في شعره، كمن يفاخر بجراته وإقدامه. يقول:

أنا الذي انتشلتها انتشالا ثم دعوت غلما أزوالا

فصدعوا وكذبوا ما قالوا

4- أسباب التمرد والفتك في شخصية القتال الكلابي:

التقت عدة أسباب ساهمت في رسم شخصية القتال وانطباعها بطابع عدواني وإجرامي، أشرنا إلى بعضها في بداية هذا البحث، بالإضافة إلى عوامل أخرى صبغت شخصيته، ولعل من أهمها:

4-أ- حبه لابنة عمه العالية:

تعلق الشاعر بابنة عم له يقال لها العالية، وكان يحبها حبا شديدا، ويلتقيها سرا متى ما أسعفته الفرص، وكان يتغزل بها غزلا يشبه إلى حد كبير الغزل العذري الذي ظهر وانتشر في العصر الأموي، ولكن الظروف لم تهر كما يحب ويهوى القتال، فقد هذه أخوها زياد أن يقتله إن وجده معها مرة أخرى، ولكن استهتار القتال

واستخفاه جعلاه يعاود الكوة ويلتقي بالعالية من جديد، ولما رآه زياد كما أشرنا طلبه يريد قتله، فانتهى به الأمر قتيلا كما أشرنا سابقا، وانتهى الأمر بالقتال مطاردا. وفي شعره يصور عاطفته تجاه ابنة عمه وعظيم حبه لها، وبديع جمالها فيقول:

أعالي ملئ الله جلئك عاليا وأسقى برلك العضاه البواليا
أعالي ما شمس النهار إذا بدت بأحسن مما تحت برلك عاليا
أعالي لو أن النساء ببلدة وأنت بأخرى لا قطع ماضيا
أعالي لو أشكو الذي قد أصابني إلى غصن رطل لأصبح باليا
أعالي تحت المالكين فولي بما ليس مفقودا وفيه شفاءيا
أصارمتي لم العلاء وقد رمى بي الناس في المهلاء المراميا
أيا إخوتي لا طيحين بمضلة وشيب إذا علت علي النواصيا
وأتبعته فيكم إذا كان حقهم كمل كنت لو كنت الطيد مراديا
وشمر ولا تعجل عليك غضاضة ولا تنس يا ابن الم ضوحي بلائيا

(ق. الكلابي 1989 الديوان، ص 94)

إننا عندما نتأمل هذه الأبيات، ونقف مع ظاهرة تكرار اسم محبوبته (العالية)، نجد أنها بداعي الحب والشوق معا، لقد خسر القتال محبوبته عندما قتل أخاها زيادا، وأصبح غريما لأبناء عمومته الذين يطلبون القصاص منه لقتله أخاهم، ومع إحساسه بمرارة الفقد ولسعة الشوق، لا يفتأ يردد اسم محبوبته في مناجاة تشبه مناجاة ورجاء الفاقد الم مؤمل. ولا شك أن حبه وشغفه بابنة عمه، الذي انتهى بقتل أخيها، كان قنطرتة نحو عالم الجريمة والفتك. ويمكن لنا أن نتخيل معاناة الشاعر، والآلام التي فُضت مضجعه، وأسهرت ليلاليه؛ فالخسارة ثقيلة مريرة، بل ومضاعفة أيضا، فالإضافة إلى خسارة ابنة العم "العالية" التي كانت محبوبته، وشفاء روحه وآلامه كما صرح بذلك في الأبيات السالفة، فإن قتله لابن عمه زياد قد جلب عليه

نقمة القبيلة التي ينتهي إليها، ليصبح بعد هذه الجريمة مطلوباً ومطارداً، ولا ريب أن حياة المطارد فيها من الآلام والمخاوف والهواجس، ما لم يفت الشاعر التعبير عنه في أشعاره.

4-ب الشعور بالاغتراب:

عندما نطالع أخبار القتال الكلابي، ونتأمل الجرائم التي تورط فيها، نلمس لديه شعورا قويا بالاغتراب، مرده إلى أسباب عديدة اجتمعت كلها لتطبع شخصيته ونفسيته بهذا الشعور القاهر؛ فخسرانه لقبيلته، وأبناء عمومته الذين قتل أخاهم، وولد في نفسه شعورا بالخسارة والغربة. كيف لا وهو يعيش في مجتمع يقوم على العصبية، وتقوم فيه القبيلة بدور كبير في حماية أبنائها، وحل الخلافات والمشاكل التي يتورطون فيها، وتعين ابن القبيلة على نواب الدهر، فتعين الفقير والمسكين، وقوم الضعيف والخائف. ولكن أئ للقتال أن يظفر بهذه المزايا، وهو الذي نبذته قبيلته بسبب جرائمه ومشاكله التي لا تنتهي؟ وفي أحيان كثيرة كان هذا الاغتراب يولد شعورا بالخوف من المجهول ومن الآتي، لأنه مطارد وملاحق من قبل أعوان الدولة الأموية، التي رصدت الجائزة لمن يدل عليه أو يأتي برأسه. وهو يعبر عن هذا الخوف بقوله:

كأن بلاد الله وهي عريضة على الخائف المطلوب كفة حلبة

مَرْوَى إِلَيْهِ أُنْكَى ۖ هَيْئَةً ۖ تَقِيْمُهَا تَوْحَى إِلَيْهِ بِقِيَامَاتِلْ

ولنا أن نتصور بعد قراءة هذه الأبيات حالة الخوف والقلق الدائم التي تلازم صاحبها حذرا من أن ينال منه بغتة، أو يؤخذ على حين غرة. لذلك رأيناه يتخذ من السباع أنبسا، ويشارك النمر الطعام والسكن، ولكنه يبقى حذرا مخافة أن يغدر به، ليقرر

في الأخير أن يقتل النمر ويرتاح من وساوسه وهو أجسه.
وإذا فتشنا في جوانب أخرى من حياة الشاعر، وجدناه كما يصفه المؤرخون
رجلا مزواجا، فلكانه بعد ابنة العم التي خسرها لم تستطع أي أنثى أن تحل مكانها.
ويروى أنه " طلق امرأته بنت ورقاء بن الهيثم بن هفان، حين وجد عندها جرير بن
الحصين:

ولما أن رأيت بني حصين بهم جف إلى الجارات باد
خلعت عذارها ولبيت عنها كما خلع العذار من الجواد
وقلت لها عليك بني حصين فما بيني وبينك من عواد
نأديها وملا يوم كيوم قضى فيه امرؤ وط الفؤاد

ولعله هذا السبب من الأسباب التي جعلت إحساسه بالاغتراب يزداد، وقبل على
الزواج والطلاق، ثم الزواج كلما سمحت الظروف بذلك. ولا شك أن خيانة الأقربين
مريّة ثقيلة على النفس، فكيف للشاعر أن يتقبل خيانة حليلته له، ولا نستبعد أن
تشكل مثل هذه الحوادث نقمة الشاعر على المجتمع، والإحسان بفقدان الثقة
والأمان، وهي أحاسيس غلّدت صاحبها شعورا بالاغتراب، وعدم الاطمئنان، الذين
يجعلانه دائم الحذر والتوجس.

4-ج- ضعف الوازع الديني لديه:

وهي حقيقة تشير إليها كثرة الجرائم التي ارتكبتها، فرغم أنه عاش في عصر أدرك
فيه كثيرا من الصحابة والتابعين، إلا أنه لم يكن له حظ كبير من توقيير الدين بشكل
خاص، فنشأ فارسا فاتكا معتدا بقوته وبطشه، عنيدا لا يلين، وقد عرف عنه رفضه
للدعوات مثلا، رغم أن شريعة الإسلام دلت عليها ورغبت في الصلح. ومن ذلك أن جنة
كانت من بني عجلان، " ثم إن بني جعفر قتلوا رجلا من بني العجلان، فأخذ القتلى
يحرص بلي عجلان على الأخذ بثأرهم، غير أنهم أخذوا الدية، فغيرهم بقوله:

لعمري لحي من عقيل لقيتهم بظلمة أو لاقيتهم بالمناسك
عليهم من الحوك اليماني بزة على أرحبيات طوال الحوارك
أحب إلي من نفسي وأروح عندها من المبروات آل قيس بن مالك
إذا ما لقيتم عصبة جعفرية كرهتم بني الكهلاء وقع السنابك
فلمستم بأخوالي فلا تضليني ولكنم ألمي لإحدى العواتك
قصار العماد لا ترى سرواتهم مع الوفد جثمون عند الم - بارك
، قتلتم فلما أن طلبتم عقلتم كذلك يؤتى بالذليل كذلك

فانظر إلى حالة الغضب الشديد الذي تنتابه لأن أخواله رضوا بقبول الصلح وأخذ الدية في مقتل واحد من أبناءهم، وهو الأمر الذي يتعارض مع مبادئ القتال الراضة لقبول الديات، والتي ترى أن الدم يطهره الدم، ولا شيء غير الدم، لذلك لم يتورع عن مهاجمة أخواله، وإعلان براءته منه (فلمستم بأخوالي)، أو قوله (ولكنم أمني لإحدى العواتك) ، فعندما نستحضر شخصية القتال التي تؤمن بالعصبية القبلية وقربة الدم، والحرص على نقائه، وتجنب الاختلاط، ثم نجده يتبرأ من أخواله، ويعلن مقاطعته لهم، كل هذا يعكس بوضوح شخصية الشاعر الشديدة التي تجاهر بمبادئها وتستमित على ذلك، ولو عنى ذلك قطع الرحم وعداوة ذوي القربى. ولا ريب أن موقفه من قضية الديات يعكس من جهة ما صفة التعصب للرأي والقناعة، وعدم الاغترار بالأموال والنفوق التي كانت تدفعها العرب كديات لقتلها، وهو ما يفسر عدم احتكامه للشرع ، بل للسيف في مثل هذه القضايا والأمور.

4-د - النزعة العصبية القوية، واستبداد السلطة:

عرفت جزيرة العرب خلال العصر الأموي توسع الرقعة الجغرافية للعالم الإسلامي، وهو ما مكن الدولة من تحصيل مداخيل ضخمة، كان لها أثرها في ازدهار

الحياة، وخاصة في المدن والحوضر الكبرى، بينما بقي أهل البوادي يشتغلون في الرعي، ورغبوا عن العمل في مناجم الحديد والذهب، ومن تلك القبائل قبيلة بني كلاب التي ينتمي إليها الشاعر. فاضطرت السلطة إلى أن تستقدم الزنوج لهذا العمل. وهو ما دل على صعوبة اندماج أهل البوادي في الحياة الحضرية الجديدة، وتمسكهم بنمط معيشتهم الذي توارثوه. وقد تم استقدام الجواري إلى تلك البوادي، ورغب كثير من أهل البادية في الزواج بهن، ولكن فئة أخرى ظلت معارضة لهذا الاتجاه، تحت حجة "نقاء الدم"، والذي يعني الحفاظ على نسب القبيلة من أن يمتزج بدماء غير دماء أبناءها. كما شكل استبداد بعض أعوان الدولة وقسوتهم سببا في تمرد بعض أبناء البوادي، الذين ظلوا أوفياء لحياة الفروسية، التي تتمرد على القيود، وتأتي الضيم والإذلال من أي جهة كانت.

5- القيمة الفنية لشعره:

استطاع القتال الكلاسي من خلال شعره أن يقدم لنا صورة عن عصره، من زاوية غير مألوفة هي زاوية الشاعر المتمرد على القبيلة والسلطة، بالإضافة إلى الشاعر الرقيق الذي يتماهى شعره مع صورة الغزل العذري الذي اشتهر في تلك الفترة، وقصائده في ابنة عمه العالية مثال عن رفته وعذوبة شعره، فهو يجمع إلى جانب شخصية الصعلوك المتمرد والمطارد، صورة العاشق العذري المتيم، لذلك يلحظ القارئ في شخصيته التقاء النقيضين: القسوة والرقّة. فرغم الجرائم التي ارتكبها "القتال الكلاسي"، وعبر عنها في أشعاره بجرأة منقطعة النظير، إلا أنه لم يفقد ذلك الجانب الرقيق من نفسه، والذي عبر عنه في قصائد الغزل التي خص بها ابنة عمه العالية، رغم تحذير أهلها له، وأخذهم الموائيق منه كي لا يشرب بها، إلا أنه كان يعود لم يهي عنه. فيمكن أن ننظر إلى شعره وشخصيته من زاويتين رئيسيتين هما الشاعر الصعلوك المتمرد، والشاعر العاشق المتغزل.

6- خاتمة:

في ختام هذا البحث الذي حاولنا أن نسلط فيه الضوء على شاعر مغمور من شعراء العصر الأموي، وهو القتال الكلابي، من خلال الوقوف على أبرز السمات التي ميزت شخصيته وهما " التمرد " و " الفتك " يمكن أن نسجل مجموعة من النتائج التي توصلنا إليها، ونذكر منها:

- استطاع القتال الكلابي أن يقدم صورة مختلفة من خلال شعره عن الحياة في العصر الأموي، في ظل التحولات التي عرفها المجتمع العربي في تلك الفترة، وهي مرحلة انتقال من طور البداوة إلى طور المدنية والدولة.
- كان للعصبية القبلية أثر واضح في تشكيل شخصية الشاعر المتمردة، وتعد فكرة العصبية قضية مركزية في شخصية الشاعر، وتعكس من جانب خفي محاولات مقاومة الحياة الجديدة والتغيرات التي عرفتها البلاد العربية
- تسببت الأفعال والجرائم التي ارتكبها الشاعر في تخلي قبيلته عنه، وتعميق إحساسه بالاغتراب، والمضي في طريق التمرد والفتك.
- تعتبر شخصية القتال الكلابي امتدادا لشخصية الصعاليك التي عرفها العرب في العصر الجاهلي، غير أنه تميز ببطشه وشدة فتكه، والإشادة بأفعاله في شعره، وهو ما يعد صفة تميز بها الشاعر عن غيره.
- مثلت شخصية الشاعر في بعض جوانبها صورة البدوي المتمرد على الدولة وسلطانها، وهو ما يدل على صعوبة اندماج بعض أبناء البوادي في الحياة الجديدة في العصر الأموي، الذي تميز بظهور القوانين والمؤسسات التي تحرص على بسط سلطة الدولة والاحتكام إليها، بدلا عن القبيلة. وتعكس هذه الصعوبة في الاندماج حالة مقاومة الانتقال الحضاري والتشبث بالتقاليد والعادات.

- آمن القتال الكلاسي بفكرة نقاء الدم، والحفاظ على نسب القبيلة من الاختلاط بغيره، وهي فكرة جسدت صورة العصبية القبلية التي عاودت الظهور بشدة، وعبر عنها شعراء ذلك العصر في كثير من قصائدهم.
- مثل غزل القتال الكلاسي صورة مشرقة في شخصيته المتمردة والفتاكة، واستطاع ببراعته أن يقدم لنا غزلا عذريا رقيقا على عادة شعراء ذلك العصر.
- تميز القتال الكلاسي عن غيره من الشعراء المفاك والصعاليك، بتصوير جرائمه في شعره، والافتخار بها.

المصادر والمراجع:

المصادر:

1- القتال الكلاسي (1989) الديوان: تحقيق إحسان عباس، د ط، بيروت-لبنان، دار الثقافة

المراجع:

- 2- حسين عطوان (د. ت. ط) الشعراء الصعاليك في العصر الأموي، مصر، دار المعارف
- 3- عمرو فروخ (1981)، تاريخ الأدب العربي، ط4، بيروت، دار العلم للملايين
- 4- ولي الدين عبد الرحمن بن محمد بن خلدون (2004) مقدمة ابن خلدون، ط1، دمشق، دار يعرب.